العدد (1805) السنة السابعة - الاربعاء (26) أيار 2010 ◆http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

بعد ان كانت تتوارث من جيل الى آخر

مهن يدوية يلفها النسيان بعد وفاة أصحابها

أغلقت (دكاني) الصغير وفضلت ان أمارس مهنتي في البيت بعد أن اصبحت هواية» ! كان كلام أبو محمد،(٦٥) عاما والذي ورث محل صناعة النحاس عن أبيه يحمل في طياته الكثير من الشجون ،بعد ان قضى معظم حياته في سوق الصفافير ،ووجد نفسه مضطرا بسبب العمر وزحف مهن اخرى على حرفته القديمة أن يغلق محله ويتحول بعمله الى البيت بعد ان اصبح عاجزا عن سداد الايجار .

بغداد / وائل نعمة
تصوير / مهدي الخالدي

سوق الصفافير

مهن يدوية

الانفتاح على العالم الذي تعيشه البلاد حاليا أدى الى إهمال الكثير من المهن اليدوية التي ورثها الناس عن آبائهم وأجدادهم، وبدت هذه المهن التي تعبر عن تراث وحضارة قديمة وكأنها لا تليق بالشباب الجديد. بالإضافة الى مشكلة الاستيراد ودخول كافة البضائع الى الاسواق والتي اثرت بشكل ملحوظ على هذه المهن، واصبح المستهلك اليوم لا يبحث عن النوع ولكن يبحث عن السعر المناسب. الصناعات النحاسية او ماتسمى بمهنة « الصفارين « أحدى المهن التي انقرضت او تسير في هذا الاتجاه ،وأذا استمر الاهمال على هذه الوتيرة لن نجد لهذه المهنة أثراً بعد.

تجهيزات العروس

الحاج أبو محمد (الصفار) يذكر أن سوق الصفافير كان في السابق ينتج مختلف الصناعات بين أواني طبخ وصحون وسماور لصنع الشاي و(شجوة) لصناعة اللبن، و»طشوت» لغسل الملابس ودلال القهوة، وكل مستلزمات الطبخ، وجميع تجهيزات العروس. فضمن العادات البغدادية القديمة كان يقوم أهل العروس بشراء هذه المواد، ويرسلونها في يوم الزفاف لبيت العريس، وكلما زادت القطع النحاسية كانت دلالة على حب العائلة لابنتهم العروس!.

وعن أسباب تراجع هذه الحرفة التراثية ، أوضح الصفار أن «هذا التراجع حدث بسبب تعرض السوق إلى انتكاسات في أزمان مختلفة، أولها قرار وزارة الصحة في بداية الخمسينيات بمنع استخدام أواني الطبخ المصنوعة من النحاس، كونها مادة تتفاعل مع أي مادة أخرى، وتحول إقبال الناس باتجاه الأواني المصنوعة من الألمونيوم والفافون، واقتصر الأمر على صناعة التحف للسائحين، وأضاف أن «بعد هذا الوقت توالت الانتكاسات التي أثرت على السوق، التي بدأت في الحرب العراقية الإيرانية، حيث تم سحب كافة المعادن لصالح الصناعة الحربية، وبعدها صدر قرار بمنع دعم الدولة للحرفيين، وبشكل اضطر التجار إلى هجر حرفهم وبيع محالهم لصالح تجار الأقمشة، والآن لا يوجد سوى ٢٠ في المائة من الصفارين فقط في السوق.

وأشار إلى أن « الأوضاع الأمنية السابقة قد زادت حالة السوق سوء، إضافة إلى إهمال الجهات المعنية لقيمة هذا الفن، فتجد أن وزارة الثقافة تقوم بدعم بقية الحرف التراثية مثل صناعة السجاد اليدوي، وصناعة العباءة الإسلامية، وأهملت فن صناعة النحاس، على الرغم من أنها الأقدم في العراق، حتى أنها تقوم بين فترة وأخرى بدعوة أصحاب بقية الحرف لمعارض محلية وعربية وعالمية، وتتجاهل النحاسين الذين تمكنوا من إيصال فنهم إلى ارقى دول العالم منذ فترات ليست بالقليلة.

قبلة السياح !

فيما يقول حسين النقاش احد الصفارين « سوق الصفافير ، أحد أقدم اسواق بغداد الشهيرة و قبلة السياح الأجانب لما أشتهر به من تحف ومعروضات نحاسية مختلفة تمثل كافة فنون الحضارات القديمة التي مرت في العراق، غير ان صناعة هذا السوق تعرضت الى التدهور بسبب الحروب واعوام الحصار ما ادى الى تسرب العديد من حرفيي السوق واقتصار السوق على محال محدودة، حيث ترك الكثير من الحرفيين الذين يمارسون مهنة النقش على النحاس هذه المهنة وقل كادر العمل وكسدت بضاعتها.

يقول الحرفيون إنهم مهددون بالانقراض لأن بضعة محال فقط هي المفتوحة ولكن بلا متبضعين. أصحاب تلك المحال كانوا منشغلين بعرض بضاعتهم بين عدة مطاعم ومحال لبيع الأقمشة وأخرى لبيع السلع المنزلية. صورة اختلفت كثيراً عن تلك الصورة القديمة التي تميز بها سوق الصفارين في عقود مضت كان خلالها ضاجاً بأصوات النقش والأفران النارية والمتبضعين من العراقيين والأجانب.

وهذا مايؤكده حسين قائلا «كان السوق يعج بالمشترين وكنا نبقى حتى ساعة متأخرة من الليل... وكان من بين المتبضعين الكثير من الأجانب ما جعل تجارة السوق تبقى نشطة على الدوام.»

أعمال يدوية اختفت من مدينة الحلة

السجاد اليدوي تشتهر به مدينة الحلة ، حيث كانت تضم الكثير من الحرفيين في هذا المجال ، حيث يقول سلطان عساف صاحب معمل صغير لصناعة السجاد اليدوي في منطقة الحلة «انني أعمل منذ اربعين سنة بهذه المهنة وان السجاد المصنوع في معملي سجاد قليل الكلفة رخيص السعر يصل سعر القطعة الواحدة الى ثلاثة الاف دينار بينما تصل سعر القطعة المصنوعة ميكانيكيا بستة عشر الف دينار وهي تصنع من مخلفات معامل الملابس من قطع القماش(الفضلة) ويتميز هذا السجاد بكثرة الالوان فيه ولايتميز بجودة عالية مثل السجاد (المحيوك) . ولكن في المقابل يعترف عساف بأن الناس قد غادروا هذه النوعية من السجاد وبدؤا يبحثون عن السجاد الميكانيكي تماشيا مع « الموضة «.

أما صناعة الأسرة من جريد النخيل فهي الصناعة اليدوية التي بدأت تنقرض سريعا حسب قول السيد سعدون أبو (الأسرة) كما يطلق عليه في سوق الحلة ، حيث قال»أنا أعمل في عمل الاسرة منذ اربعين عاما وهي تصنع من مخلفات سعف النخيل»الجريد»مضيفا»ان عمل الأسرة ومنذ دخول الأسرة الحديدية والتي تعتبر رخيصة قياسا بالحالة المعيشية للفرد العراقي بدأت صناعة الأسرة تنقرض شيئا فشيئا ولربما أنا الوحيد الذي بقيت أعمل بصناعة الأسرة التي تكلفنا الكثير من الجهد والوقت وفي الوقت نفسه نبيعها بأسعار رخيصة حيث يصل سعر السرير الى ٢٠ أو ٢٥ الف دينار فيما يحملنا صناعته الكثير من المشاق خاصة المواد الأولية التي تعتمد بصورة رئيسية على سعف النخيل الذي أصبح نادرا الحصول عليه .

توقف الفلاح فتوقفت مهنتنا

أما مهنة نجارة الادوات التي تستخدم في الزراعة فهي الاخرى تعاني النسيان ، حيث يقول النجار حسن داود : مهنة النجارة من المهن اليدوية الأثرية حيث يعود تاريخها لأكثر من ١٠٠ عام، والقليل يعمل بها اليوم بعد ان كانوا كثيرين والسبب يعود ان اصحاب هذه المهنة القدماء كبروا بالسن والبعض منهم توفى، وان اولادهم لا يرثون هذه المهنة ويتحججون بالتطور والانفتاح الجاري حاليا.

واضاف « ورثت هذا العمل من والدي ، واقوم بصناعة (ربد كرك وغرابيل ويدات المناجل والسكاكين ويدات سكاكين التكريب وتختات اللحم، والحجلة الخشبية للطفل) ، وتابع» حصل فتور في عملنا في الفترة الاخيرة لان عملنا يتاثر بعمل الفلاح وهو لا يعمل الان فبعضهم ترك الزراعة والبعض يوعز عدم عمله لعدم حصوله على الكاز والكيمياوي وشحة المياة . ويتحدث عن مهنته فيقول : نستخدم خشب شجرة الصفصاف الذي نتركه معرضاً للشمس لمدة سنة كاملة كي يجف ونعمله ربد لكرك يبقى عند الفلاح اكثر من أربع سنوات، اما الربد الصيني المتوفر بالسوق حاليا فعمره قصير جدا لا يتجاوز الثلاثة اشهر.

العباءة الرجالية

أما صناعة العباءة الرجالية فهي أيضا من الصناعات الشعبية اليدوية التي غادرها أصحابها بسبب دخول المنتجات الصناعية الاجنبية الميكانيكية حيث قال صاحب أحد المعامل في منطقة الجامعين في الحلة وهو السيد حسين هزوم مواليد ١٩٤١ «ان معملنا متخصص بصناعة العباءة الرجالية لكبار السن والمعمل عبارة عن مايسمى بالجومة وأضاف ان صناعة العباءة تكاد تنقرض بسبب ما يدخل من قماش العباءة الجيد والرخيص والمصنوع بأحدث المكائن لأن صناعة العباءة مكلفة وبطيئة إضافة الى أنها غير مربحة قياسا بالصناعات الأخرى حيث تكلف العباءة الجديدة المصنوعة ميكانيكا أثماناً رخيصة تصل الى ٢٥ الف دينار بينما تكلف العباءة المصنوعة يدويا أكثر من ١٢٠ الف دينار.

مهن نسائية انقرضت

من المهن النسائية الرابحة، والتي قد انقرضت هي مهنة برم الحرير وغزل الصوف،وكانت من المهن التي تعمل فيها النساء في البيوت. وكانت خيوط الحرير الخام تباع بالوزن ، وتستورد من سوريا، او من مدينة ليون بفرنسا مباشرة، او من الصين. تقول الحاجة زهرة (٧٠) عاما « كنا نبرم الخيوط بواسطة المغزل ونلف الحرير الخام على خشبة صغيرة تسمى (لولة) او (نبوبة)، ومنها نأخذ الخيوط الحريرية وندخلها في رأس المغزل ونبدأ بالبرم وتستمر هذه العملية حتى يمتلئ المغزل المحصور بين القاعدة ورقبتة ، ثم يلف الحرير على « السربس» اليدوي ويتحول الى (وشيعة) إذ تباع هذه الوشائع في السوق أو الى الكاظمية مباشرة الى معامل النسيج اليدوية.

اما الصوف ، فيكون له ادوات خاصة اخرى وطريقة مختلفة للعمل ، حيث تصف لنا الحاجة زهرة هذه الطريقة بأن تقوم في البداية بأختيار نوعية معينة من الصوف وحسب لونه ونظافته، فالصوف الجيد هو النظيف ذو «التيلة» الطويلة الخالي من العقد والعطب (والعطب هو نوع من الشوك يلصق بالصوف ويصعب استخراجه). مع ضرورة صفاء اللون ووحدته، ان كان ابيض او اسود او احمر (حمرة غنم) وبعد ان تتم تنقيته بكل عناية وتساوم على سعره بأطول نفس تأخذه الى البيت وتبدأ عملية التمشيط، اذ لابد للمرأة من مشط خاص للصوف ودولاب و»سربس» ومغازل، ومشط الصوف يتكون من لوحة من خشب الجوز او الجاوي طولها اكثر من نصف متر وعرضها عشرون سنتمترا تقريبا، وفي احد رأسيها صفان من الاسنان الحديدية بطول ١٢- ١٥ سنتمترا وتأخذ قطعا من الصوف وتمرره بهذه الاسنان الحديدية مرات عدة الى ان تمتص اسنان المشط جميع الاوساخ العالقة وتجعله ناعما. ثم يتم برمه على شكل اسطواني طوله قدم واحد مدبب من الراسين ويسمى (عميتة) ثم تبدأ غزل هذه «العمايت» بالمغزل. ويلف الغزل بعدئذ ويسمى (وشيعة) ويتم بيع هذه الوشايع حسب الجودة واللون.

اما اذا كان الصوف غير معد للغزل فأنه يلف على الدولاب الموجود لديها، خصوصا اذا كان الغزل معدا للبيع وليس مخصصا لعباءة الزوج او الابن ، فيلف الغزل بعدئذ ويباع اما اذا كان الغزل للزوج او للولد فأنه لا يباع بل يعطى الى الحائك ليحوك به العباءات في محلات الحياكة الموجودة في بغداد او في الكاظمية او باب الشيخ، وتحاك العباءة على قطعتين، فوق وتحت ، وخياط العباءة ، هو الذي يجمع بين القطعتين ويخيطها.الحاجة زهرة كانت تبيع غزلها في سوق الغزل الذي تغير الان واصبح سوقا للطيور والحيوانات وهذا دليل واضح على أن لا مكان لهذه المهن بعد !

ونحن نعيش غمرة الامتحانات النهائية

سوق (الدروس الخصوصية) تنشط والأهالي يشتكون

مع قرب الامتحانات للدراسة بكل مراحلها تنشط هذه الأيام ظاهرة اللجوء إلى المدرس الخصوصي ، ذلك لان كلا من الطالب وذويه حريصون كل الحرص على احراز الدرجات التي تؤهل الطالب (الابن او الابنة) لا فرق ما دام الحرص موجوداً للدخول الى جامعة علمية ومن الدرجة الأولى ، الا ان ظاهرة الدروس الخصوصية التي استشرت منذ سنوات لم تقو تعليمات وزارة التربية على منعها او الحد منها في اقل تقدير

بغداد /سها الشيخلي
تصوير / سعد الله الخالدي

وباتت هذه الظاهرة تمثل طوق النجاة للطالب تارة ، وتوسع من دائرة المافيات في الحصول على اكبر عدد من الطلبة الدارسين بالنسبة للمدرسين بالدرجة الاولى والمعلمين الذين يدرسون المرحلة المنتهية من الدراسة الابتدائية بالدرجة الثانية ، وهي تحقق حلم الكثير من الطلبة في الحصول على المعدل الذي يتمناه الطالب فهي بالتالي مؤشر اكيد على عدم التزام بعض المعلمين والمدرسين بأخلاقية مهنة التربية والتعليم وعدم جديتها وتهاونهما في إيصال المادة الى اذهان الطالب وبالتالي دفع الطلبة الى اللجوء للدروس الخصوصية

إنذار جيم في بيوتنا

وتشهد بيوتنا في الغالب (انذار جيم) في موعد الامتحانات لكل المراحل بل وحتى للدراسة الجامعية الاولية ، وتجدر الاشارة الى ان هناك نوعين من الدروس الخصوصية الاول يتمثل باعطاء المدرس للدروس في نفس مدرسته ولطلابه ، اما النوع الثاني فهو اعتماد الطلاب على مدرسين من خارج الكادر التدريسي في المدرسة ، فما هو راي كل من الطالب والمدرس والعائلة في الحد من هذه الظاهرة ؟

من الفرع العلمي لكنني اجد ان العكس هو الصحيح فمادتا العربي والتاريخ اراهما بحاجة الى فهم وتلقين اكثر من مواد الفيزياء والكيمياء ، اما اللغة الانكليزية فالمنهج واحد في كلا الفرعين ، الطالبةسلمى ١٢ سنة في الصف السادس الابتدائي تقول ان مدرسة اللغة الانكليزية لا تقوم بتوصيل المادة كما يجب وكل ما تقوم به هو أسماعنا الكلام القاسي والتأنيب والصراخ ، وعندما نريد منها ان تعيد لنا المادة او ترد على استفساراتنا تأخذ في التهكم علينا وأسماعنا كلمات قاسية ما يجعلنا منطوين في الدرس بينما نراها نشطة ولطيفة ومجاملة الى ابعد الحدود في الدرس الخصوصي وتلبي كل الطلبات التي نطلبها منها وتعرف الكلمات وتقوم بشرح المادة من كل جوانبها ولا تترك الدرس الا بعد ان تتأكد من أننا قد فهمنا المادة جيدا.

من هو المقصر ؟

فائزة عبد الواحد مشرفة تربوية تشير الى ان لا الطالب مرتاح ولا المدرس فالطالب يتهم مدرسه بعدم شرح الدروس والمدرس يتهم الطالب بعدم الجدية وانه مشاغب ومشاكس ولا ينتبه للمدرس اثناء القائه الدرس وغالبا ما يسرح ويخرج بافكاره من خارج قاعة الدرس او يتحدث مع زميلة على نفس الرحلة واحيانا يلعبون مسابقات بينهم اثناء ما يتحدث المدرس او المعلم ، ولكن في حقيقة الامر انا لا الوم الاثنين لعلمي ان هناك نماذج في كلا الحالتين ومع كل ذلك ارى ان الدروس الخصوصية ظاهرة جديدة لم يالفها الجيل الماضي فمثلا ان امي مدر سة لكنها تؤكد ان جيلها لم يشهد مثل هذه الظاهرة ومع كل ذلك لو بذل كل من المدرس او المعلم والتلميذ جهده في الدرس لامكننا القضاء على ظاهرة المدرس الخصوصي .

تدني كفاءة المدرس

يؤكد عدد من طلبة الدراسة الاعدادية بفرعيها العلمي والادبي عدم جدية المدرس عند شرحه للمادة واشار فراس عبد الله ١٨ في مرحلة السادس العلمي ان مدرس الرياضيات لا يجيب على اغلب الاسئلة التي يطرحها الطلبة في الدرس فيما تراه نشطا ومجيبا على كل الاسئلة عندما نذهب اليه في الدرس الخصوصي في المساء ، كما يتوجب عليه ان يكون امينا على عمله وحريصا على ايصال المادة بكل وضوح ويسر، ثم تساءل الطالب عدنان سالم، الا يتقاضى هذا المدرس راتبا على مهنته ؟ الطالبة فائزة ١٨ سنة في المرحلة السادسة للفرع الادبي قالت:

البعض يرى ان الفرع الادبي اسهل بكثير وان نجنب أنفسنا خسارة مبالغ تصل أحياناً الى الملايين اذا ما كان للعائلة أكثر من تلميذ بحاجة إلى مدرس خصوصي ، ومع ذلك فهي توضح كيفية اللجوء الى المدرس الخصوصي بالقول :

ظروف الحصار التي عاشها المواطن قبل سنوات والحالة الاقتصادية المتردية التي سادت المجتمع اثرت بشكل كبير على مجمل الحياة العامة للعراقيين، وانسحب ذلك التأثير على المسيرة التعليمية والتربوية بحيث صار هناك تخلخل ونقص حاد في الكادر التعليمي وخاصة بعد الحرب العراقية – الإيرانية مما أرغم الاهل على الاستعانة بالدروس الخصوصية . كما عمل ذلك على ابتزاز المدرس لاهل الطالب وطلب مبالغ كبيرة مما يجعل الاهل يلبون كل ما يطلبه المدرس في سبيل منفعة ابنهم الدارس .

في حين ترى ام رجاء ان للضرورة أحكاماً ، فمثلا يزداد الطلب على الدروس الخصوصية عند اقتراب موعد البكلوريا حيث تشهد السوق عرضا وطلبا كما يحدث الان ، وهي فترة حرجة وحاسمة في حياة كل من الطالب والاهل معا .

حيث الدروس المدرسية لا تحقق الغاية المرجوة منها ، وتشير ام رجاء الى ان بعض المدرسين يجدون في موعد قرب الامتحانات فرصة ذهبية حيث يقومون بتدريس المادة لثلاثة (شفتات) ويجنون مبالغ كبيرة جراء ذلك . ويقول ابو رامي ٥٠ سنة ان ضعف الأداء للمعلمين والمدرسين وغياب دور وزارة التربية في مراقبة المدارس ومتابعة سير التدريس احد الأسباب الرئيسة التي ساهمت في انتعاش هذه الظاهرة خلال العقود الأخيرة إذ أن إشراف الوزارة وصل الى مرحلة من الضعف بحيث يدرس المدرس بمرأى ومسمع من إدارته ومديريته ، ويؤكد ابو رامي ان القضاء على هذه الظاهرة يتطلب جهودا كبيرة وسريعة من الوزارة عامة ومن الأهل خاصة ويشير ابو رامي إلى ان مدارسنا بصورة عامة وخاصة الصفوف الأولى وهي الاول الابتدائي والأول متوسط تشهد حشر العديد من الطلبة في صف واحد مما يصعب على المعلم او المدرس توصيل المادة الى أكثر من ٥٠ طالبا في حين ان كل مدارس العالم لا تضم مثل هذا العدد المحبط لعمل المعلم كما انه يؤثر بشكل سلبي على الطالب المتلقي فكثيرا ما نجد الفوضى في مثل تلك الصفوف .

انتعاش الظاهرة

ام ماجدة وهي والدة لثلاثة طلبة يدرسون لدى مدرسين خصوصيين تقول :

– نحن الذين نقف وراء هذه الظاهرة وقد شجعنا أبناءنا بالاستعانة بالدروس الخصوصية ونحن الذين نستطيع الحد من هذه الظاهرة اذا ما وجهنا أبناءنا بشكل صحيح وعلمناهم كيف يعتمدون على أنفسهم بدون المدرس الخصوصي

اتهام الأهل

ويتهم احد المسؤولين في وزارة التربية (فضل عدم ذكر اسمه) الأهل وراء تفشي ظاهرة الدروس الخصوصية اما للتباهي او لإحراز درجات عالية لكي يذهب الابن الى كلية الطب مثلا ، اما لماذا الطب ؟ فالمسالة لدى الأب وراثية فما دام هو طبيب فيجب ان يكون ابنه طبيباً أيضاً وكذلك الصيدلي والمهندس ، اما المعاهد فيذهب إليها الطلبة الذين يصعب عليهم دفع اجور الدراسة الخصوصية ، الا أننا عمدنا كجزء للحد من ظاهرة الدروس الخصوصية الى فتح دورات تقوية في مدارس اغلب المناطق وبأجور رمزية لمساعدة الطلبة الضعفاء في بعض المواد والتي هي في الغالب لا تتعدى اللغة الانكليزية ، الكيمياء ، الفيزياء ، الأحياء لكن بعض الأهل لا ترضيهم هذه الحلول فيبحثون عن الأساتذة الذين لهم شهرة واسعة في مجال الدروس الخصوصية.

ومع علمنا بحرص وزارة التربية على الحد من ظاهرة الدروس الخصوصية من خلال كتبها العديدة والندوات والمؤتمرات التي تعقدها ألا أن الظاهرة تتسع بشكل كبير وليس أدل على ذلك ايام الامتحانات التي لم تعق المدرس الخصوصي الانقطاعات المستمرة للتيار الكهربائي بل يعمد الى الاستعانة بالمولدة المنزلية وبالطبع سوف يزيد من أجوره حاسبا معها أجور المولدة .

ماقبل الامتحانات